مالك بن نبي

دور المسلم ورسالته

في الثلث الأخير من القرن العشرين

دار الفكر
دمشق - سورية

دار الفكر
الجزائر


بسم الله الرحمن الرحيم


دور المسلم ورسالته
في الثلث الأخير من القرن العشرين



الكتاب ٩٢٥
الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ = ١٩٩١ م



طبع بالجزائر بإذن من دار الفكر - دمشق
بالتعاون مع المكية للإعلام والنشر والتوزيع
38، مزرعة رشيد، كوريفة - الحراش

بسم الله الرّحمن الرّحيم

يتضمن هـذا الكتـاب نص المحـاضرة الأولى ، التي ألقاها المؤلف ـ رحمـه الله ـ في رابطـة الحقوقيين بتـاريخ ٢٣ صفر ١٣٩٢ للهجرة ، الموافق ٢٨ آذار (مارس) ١٩٧٢ للميلاد ، في مـدينـة دمشق ، تحت عنوان (دور المسلم في الثلث الأخير من القرن العشرين) .

ونص المحاضرة الثانية التي ألقاها في مسجد المرابط ، في مدينة دمشق بتاريخ ١٩ ربيع الثاني ١٣٩٢ هـ الموافق ٢٢ أيار (مايو) ١٩٧٢ م ، تحت عنوان (رسالة المسلم في الثلث الأخير من القرن العشرين) .

تقديم

(دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين)

هاتان محاضرتان من نفحات دمشق .

نفحات طالما استفاض بها فكر المرحوم مالك بن نبي ، وهو في زيارة هذا البلد العزيز ، فأعطى الكثير ، وأضاء من جوانب فكره ما حمل المزيد من المؤلفات .

ففي عام ١٩٥٩ م زار الأستاذ مالك دمشق لأول مرة ، فأحب فيها شغفاً إلى الجديد من الفكر ، واهتماماً بما سبقه إليها من عطاء أعطاه في القاهرة ، في (شروط النهضة) و (الظاهرة القرآنية) و (الفكرة الإفريقية الآسيوية) ... وهكذا تتابعت أفكار بن نبي كتاباً إثر كتاب ، وتتابع الاهتمام بها سحابة من الزمن غير يسيرة .

وفي بداية السبعينات ، أحس كأنما أوشكت مسيرته على طريق الرسالة تبلغ الأجل الذي أجله الله لها ، فمرَّ ببيروت عام ١٩٧١ م ، ثم بطرابلس لبنان ، وأودعني - رحمه الله - وصية سجلها في ١٦ ربيع الثاني ١٣٩١ هـ الموافق ١٠ حزيران (يونيو) ١٩٧١ م في المحكمة الشرعية في طرابلس ، حملني فيها مسؤولية الحفاظ على أفكاره والإذن بنشر كتبه .

ثم عاد في العام التالي عام ١٩٧٢ م ، فمرَّ بدمشق وهو قافل من رحلة الحج الأخيرة ، ليقف على منبرها الفكري ، ويلقي وصيته الأخيرة في رحاب مسجد المرابط ، وفي هذا مافيه من دلالة جغرافية وفكرية معاً . أما الجغرافية فلأنه كان يشعر بأهمية دمشق وسورية على وجه العموم بصفتها موقعاً جغرافياً ملائماً ، مارس دوره التاريخي في نشر الأفكار ، التي أثرت في مسيرة الأمة العربية منذ بداية هذا القرن . وأما الدلالة الفكرية الخاصة ، فلأن الحديث عن رسالة المسلم في الثلث الأخير من القرن ، قد استلهم روحه في بيت من

بيوت الله اتخذ اسم المرابط ، ذلك التعبير الإسلامي الذي يحمل قيمة الإنسان ، في أرفع حالات التأهب النفسي للدفاع عن الرسالة والقيم .

فالأستاذ مالك يربط بين الفكر والفعالية ، فالفكر بغير فعالية إنما هو ترف لا يزن شيئاً في موازين التاريخ ، والفعالية بغير فكر طريقٌ أعمى لا يدفع المجتمع في سبيل التقدم .

هذه وصية تركها مالك بن نبي في ضمير أجيال ، تتلمس الخروج من أزمتها الراهنة ، وما نقول فيها ونحن نبلغها إلا كما قال الرسول ﷺ : « رُبَّ مبلَّغٍ أوعى من سامع »[1] .

دمشق في ٨ شوال ١٣٩٨ هـ
١٠ أيلول (سبتمبر) ١٩٧٨ م

عمر مسقاوي

---

(١) رواه البخاري والترمذي والدارمي وابن ماجه وأحمد ، مع اختلاف في الروايات .

دور المسلم

في الثلث الأخير من القرن العشرين

محاضرة الأستاذ مالك بن نبي

في رابطة الحقوقيين في دمشق

٢٣ / ٢ / ١٣٩٢ هـ = ٢٨ / ٣ / ١٩٧٢ م

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على خير المرسلين .

أيها السادة الكرام ، الأبناء والطلبة الأعزاء !

إنني لا أستطيع أن أقدر هذه اللحظة حق قدرها في سجل حياتي مع أن اللحظات واللقاءات تتكرر . إنني أشعر بمزيد من السرور والفرح إذ أتحدث مع هذه الطائفة من الشباب المسلم في هذه الأصقاع من البلاد الشقيقة ، سورية العزيزة ، وفي معقل من معاقل الإسلام ، المعقل العريق دمشق . ويجب علي أن أتوجه بالشكر لإخواننا الحقوقيين الذين أفسحوا لنا المجال وقدموا لنا هذا المكان ، لنعرض ما استطعنا دور المسلم في الثلث الأخير من القرن العشرين في رأينا .

لو حاولنا تحديد دور المسلم عامة ما كان لنا أن نختار سوى ما اختاره الله له دوراً في التاريخ . يقول عزَّ

وجلَّ : ﴿ وَكَذلِكَ جَعَلْناكُم أُمَّةً وَسَطاً لِتَكونوا شُهَداءَ على النّاسِ ويكونَ الرَّسولُ عَلَيْكُمْ شَهيداً ﴾ [البقرة : ١٤٣/٢] . هكذا يحدد الله دور المسلم بصورة عامة ، وليس لنا أن نختار له دوراً أشرف وأفضل منه ، وإنما نلفت النظر إلى خطورة هذا الدور وإلى مقتضياته ، التي هي من اختصاص الفقهاء ومن اختصاص الحقوقيين ، لأنهم يعرفون شروط تزكية الشهادة ، والشاهد من الناحية العقلية ومن الناحية الأخلاقية معاً .

لكن لماذا أفردنا وتعمدنا إفراد فترة معينة من هذا القرن ؟

أولاً : لطبيعة القرن العشرين التي يتميز بها عن القرون الأخرى كلها ، لأنه القرن الذي تحققت فيه تغيرات جذرية ، بدت وكأنها ترسم للإنسانية نقطة اللارجوع على محور الزمن ، فهو القرن الذي هبت فيه أكبر عواصف التاريخ على مصير الإنسانية .

ثانياً : لأنه القرن الذي سجل الأحداث الكبرى ،

سواء في مجال العلم ، أو ـ كما سنرى ـ في المجال النفسي ، أو في المجال الأخلاقي والديني . ففي كل هذه المجالات هبت عواصف كبرى يبدو أنها غيرت معالم الطريق . وعلى أية حال فهي قد غيرت ملامح الزمن والمجتمعات الإنسانية .

هذه التغيرات تحققت من خلال أحداث كبرى ، خاصة منها الحربين العالميتين اللتين هزتا العالم مرتين في ظرف أربعين سنة ، وشملتا للمرة الأولى في التاريخ سائر أنحائه . ولوقع هذه الأحداث نتائج لا مناص منها ، بعضها دخل سجل التاريخ وتسجل في حافظة الإنسانية وفي كتبها ، وبعضها دخل عالم النفوس ، سواء استطعنا قراءته أم لم نستطع ، وبعضها لا زال توقعات في ضمير الغيب نرى من خلالها أحداثاً كبرى مطلة على زماننا .

فهذه الأسباب تجعلنا نرى في هذا الثلث الأخير من القرن العشرين ، كأنه النهر قرب شاطئ البحر وقد بلغ المصب ، بعد أن تجمعت فيه جميع روافده من المياه ، التي انحدرت من أعالي الجبال في أقصى داخل البلاد . فالثلث الأخير يبدو هكذا تلك الفترة من التاريخ التي

تتجمع فيها كل روافد التاريخ ، بكل نتائجها النفسية والاجتماعية والسياسية والعلمية ، وكل التغيرات المترتبة على هذه النتائج . وعليه فإن هذه المسوغات تكفي لتسويغ اختيارنا له بصفته حقبة زمنية استثنائية في التاريخ ، يكون دور المسلم فيها شيئاً استثنائياً أيضاً ، يجب إدراجه بطريقة خاصة في الدور العام الذي حدده له القرآن الكريم بوصفه شاهداً ، وذلك أمر يجب أن يدخل في اعتبارنا ويجب أن نقدره بقدر ما يمكننا من الواقعية ، حتى نقدم لشبابنا الصورة الموضوعية ، التي يرى من خلالها دوره هو ودور إخوانه الآخرين فيه ، لأن رسالة الجيل الناشئ ستحقق على أية حال إما سلبية أو إيجابية فيه ، فهو ثلث تحقق رسالته .

ولكي نتبين طبيعة هذا الدور ، الذي يجب على الشباب المسلم أن يتصدى ـ منذ الآن ـ للاضطلاع به في هذه الحقبة المواجهة له ، المنفتحة أمامه ، يجب أن نراجع بعض السمات التي يتميز بها هذا الثلث الأخير في العالم المتحضر ، لأن مركز الفكر العالمي اليوم يوجد على محور

سبق أن سميناه ، في كتاب سبق نشره[1] ، محور (واشنطن ـ موسكو) ، محور القوة ، محور العلم ، محور الحضارة .

يجب إذن أن نلتفت إلى هذا المحور ، مركز الثقل الذي تطبع عليه الأحداث كل أبعادها العالمية ، ونتساءل ماالذي طرأ على هذا المحور ؟ ماذا حدث فيه خلال القرن العشرين ؟ ماهي التسجيلات الخاصة ـ وهذا ما يهمنا ـ في العالم الثقافي وفي العالم النفسي عليه ؟

إن الأجيال في هذا المجتمع المتحضر عاشت على رصيد ثقافي ورثته من الأجيال السابقة ، أعني أنها عاشت على رصيد المسوّغات التي دفعت عجلة التاريخ في القرون الماضية ، وخصوصاً في القرن التاسع عشر والقرن العشرين . والذي يبدو ـ خاصة إذا رجعنا إلى فترة مابعد الحربين العالميتين ـ أن هذا الرصيد من المسوّغات الضرورية لتحمّل أعباء الحياة ، بدأ ينفد ، وبدأت

(١) الفكرة الإفريقية الآسيوية .

الشعوب التي تعيش على محور (واشنطن ـ موسكو) ، الشعوب المتحضرة ، بدأت تشعر جميعها بنفاد رصيدها الثقافي ، رصيد مسوّغات حياتها التقليدية الموروثة عن أجدادها ، وبدأت فعلاً تجري عمليات تعويض في شتى الميادين ، حتى في ميدان الأدب حيث نرى لوناً جديداً يظهر تحت اسم (الوجودية) .

وإذا كان من حق أصحاب هذا اللون من الأدب أن يحللوا القضية من الناحية الأدبية ، كما يفعل (كيركجارد وهايدجر وسارتر) ، في كل من الدانمرك أو ألمانيا أو فرنسا ، فإن من حقنا نحن أن نحلله من ناحية أخرى . فنرى فيه رد فعل أدبي على شعور غامض لفقدان المسوغات في المجال النفسي .

والسؤال الآن كيف فقدت هذه المسوغات ، التي تحركت ودارت عليها عجلة التاريخ طيلة القرون الماضية في أوربة ؟

لنتصور كيف كان ينشأ الطفل في زمان (كيبلنج) مثلاً أو في زمان (أرنست رنان) مثلاً .

كيف كان ينشأ في بيته ؟ ثم كيف يتعلم في مدرسته ؟ ثم كيف كان يتوجه في عمله بعد التخرج من الجامعة ، أو عندما يبلغ أشده ويتوجه إلى الحياة العملية جندياً في تلك الجيوش التي تفتح البلدان التي تسمى المستعمرات .

كان الطفل في ذلك الوقت ينشأ وحوله جو من الأفكار منبتها الاستعمار ، أي المناخ الاستعماري الذي تكوَّن في أوربة وفي أمريكة على حدٍّ سواء ، وفي الاتحاد السوفييتي قبل الثورة أيضاً . هذا المناخ الاستعماري هو الذي كان ينشأ فيه الطفل منذ ولادته ، نشأةً لا يبدو معها غريباً في هذا المناخ الذي كان يسود العالم المتحضر ؛ أن يقوم من فرنسا كاتب قصصي كبير في أواخر القرن الماضي هو (جلفرن) ، ليكتب عن ملحمة لا تمت بصلة إلى بطولة الفرنسيين أو بطولة الجيش الفرنسي ، هي ملحمة عنوانها (ميشال ستروجوف) ، بل تتصل بفتح روسيا للبلاد الإسلامية في بخارى . وكانت قصة غريبة فعلاً ، إن دلت على شيء فإنما تدل على سيادة المناخ الاستعماري شرق البلاد وغربها ، ذلك

المناخ الذي سيتم فيه إبرام الميثاق الاستعماري في مؤتمر برلين ١٨٨١ م ، حيث كان الضمير الأوربي ، الضمير المتحضر يعيش هذه الملحمة المتفقة مع روح ذلك الميثاق ، فلا نستغرب معه استعمال تسميات الاكتشافات الاستعمارية والفتوحات الاستعمارية . لكن الشيء الذي يهمنا نحن من جانب التحليل اليوم ـ كي نعود إلى موضوعنا ـ هو كيف فقدت المسوغات ؟

كان الطفل يشبع جانب تعطشه للأشياء الغريبة والقصص النادرة وقصص البطولات ، في جو الاستعمار وفي ملحمة الفكرة الاستعمارية نفسها ، لذلك لا نستغرب أن نرى رجلاً كـ (ستانلي) في أواخر القرن الماضي ، نشأ في هذا الجو وتكونت عنده فكرة الاكتشافات وفكرة الفتوحات ، نراه يغادر وطنه وينزل إلى إفريقية الوسطى فيحتل قطاعاً كبيراً منها . لقد كان يرى ما يراه على الخريطة قطعة بيضاء فراودته الفكرة أن يلونها بلون ما ، وكان اللون الأحمر على الخرائط المستعملة في أواخر القرن الماضي مخصصاً لتلوين

المستعمرات الفرنسيـــة ، واللـون الأخضر لتلـوين المستعمرات الإنجليزية ، واللون البني لتلوين المستعمرات البرتغـــاليـــة ، واللــون الأصفر لتلـوين المستعمرات الهولندية إلخ ... فـأراد (ستـانلي) أن يلون قطعـة مـا من إفريقيـة بلون يخول هـذه القطعـة أن تكـون هـديـة لأوربة بصفتها مستعمرة ، وقد أهـداهـا فعلاً لمـا تمَّ وضع اليد عليها ـ على الكونغو ـ ، إلى تاج بلجيكا وكأنها ملـك أجداده أو قطعة من تَرِكَتهم يقـدمهـا إلى ملـك أو ملكـة بروكسل .

أما إذا كان هذا الأوربي جندياً فإن نشـأتـه في هـذا الجـو ، تصـور لـه أن المجـال لأداء واجبـاتــه الـوطنيــة وواجباته العسكرية ، هو قطـاع من قطـاعـات إفريقيـة وآسية .

هكـذا كانت الأمـور تسير ، وهكــذا كانت تتفتـح نفوس الأطفال في أوربة . يضاف إلى ذلك تـدخل بعض الأشيـاء ذات الجـانب الخفي ، الجـانب الـذي يتصل بمـا نسميـه الصراع الفكري : الأشيـاء التي تصور لهـذا الطفل

الناشئ حتى قبل دخوله إلى المدرسة الابتدائية أو قبل خروجه منها ـ في مجلات متخصصة للأطفال ـ تصور له آيات البطولة في إفريقية على حساب أولئك البرابرة من السود أو من الصفر ، مما يجعله يعتقد عندما ينزل بلاداً مثل (شنكهاي) في أواخر القرن الماضي ، أنه هو رب الصين . فيضع لافتة على باب الحديقة ـ رأيناها نحن عندما زرنا الصين ، لأن الحكومة الصينية تركتها كما هي بعد خروج الاستعمار منها ـ كتب عليها « لا يدخل هذه الحديقة الكلاب ولا الصينيون » ، بعض الكلاب طبعاً . لقد كان ترتيب الكلمتين الكلاب أولاً والصينيون ثانياً .

هذا هو المناخ الذي كانت تتكون فيه نفوس الأطفال ونفوس الشبان ونفوس الرجال ، وهذا هو المناخ الذي كانت تنطلق فيه الطاقات ـ طاقات لا نحتقرها فعلاً ـ كتلك الطاقة الجبارة التي نتصورها في شخص مثل الأب (دوفوكو) ، الذي تطوع أن يذهب في سنة ١٩٠٨ م على الأقدام ، من مدينة في جنوب

الجزائر ، لفتح القطاع الصحراوي حتى حدود ما يسمى بالسودان الغربي . فهذه الأشياء كانت تغمر الحياة الأوربية بفيض من المسوغات . وربما كانت هناك منابع أخرى لهذه المسوغات فقدت أو جَفّ نبعها بعد الحرب العالمية الأولى والثانية ، بسبب تطورات تتصل بما حدث مثلاً بشأن الروابط الخفية أو الظاهرة بين مجالي العلم والنفس .

فبقدر ما كانت تتحقق اكتشافات علمية كبرى في أوربة ، بقدر ما كانت تترك صداها على المجال النفسي ، وأثرها الكبير في التطور الروحي ، حتى بدأت تفتر بعض المسوغات الروحية لأسباب لا نطيل عندها الوقوف ، حتى لا نتعدى بعض الحدود من اللياقة .

هكذا فقدت المسوغات الروحية ، وفقدت حتى المسوغات التي نسميها المسوغات الاجتماعية ، المسوغات الموضوعية .. وإذا أردنا أن نعرف المسوغات الموضوعية نذكر على سبيل المثال ، ما كان لهم من ثقة بكلمتي العلم والحضارة ، فقد كانت هذه الثقة هي منطلق الأفكار

الأوربيـة في القرن التـاسـع عشر ، وفي بـدايـة القرن العشرين ، خصوصاً قبل الحرب العالمية الأولى .

والصلة بين هذين الجـانبين واضحـة . فحينمـا تفقـد حياة ما أو مجتمع ما مسوغاتـه ، لا بـدَّ أن يقوم بعمليـات تعـويض : يستبـدل بمسـوغـات قـديمـة أو تقـادمت ، أو فقدت تأثيرها في الحياة الاجتماعية ، بصفتها دوافع قويـة للحيـاة الفكريـة والعلميـة والعسكريـة والاقتصـاديـة ، يستبدل بها مسوغات جديدة .

فـإذا لم تـأت عمليـة التعـويض كما ينتظر منهـا بالمسوغات الجديدة فماذا يحدث عندئذ ؟

تحـدث الأزمـة الخطيرة التي يعيشهـا العـالم المتحضر اليوم .

فالعالم المتحضر اليوم ، يبدو أنه قـد أخفق في عمليـة التعويض ، سواء من الجانب الأدبي كمحـاولـة الوجوديـة مثلاً ، أو من الجانب السيـاسي كمحـاولـة الرجوع لأصلـه الأوربي ، بحثاً عن منطلقات جديدة لأفكاره ولنشاطاته

الاقتصادية ، فكأنما تقطعت أنفاسه ، ولم تعد في متداوله تلك الأشياء المتينة التي كان يرتكز عليها في القرن الماضي وبداية هذا القرن .

وعندها فإن من الطبيعي أن من لا يجد سنداً في مسيرته التاريخية سيقع في حيرة وتيه وقلق . وهذا ما يفسر لنا مانراه اليوم ، من حيرة قائمة فعلاً في العقول والنفوس والأرواح . فإذا مااجتمعت هذه الأشياء فعلاً في نفس بشرية ، فعندها يمكن أن نتصور ماتولده من دوافع سلبية . فإذا مافقد مجتمع ما مسوغاته ولم يستطع تعويضها بالطرق المشروعة في محاولات مبذولة ، عندها يعتريه القلق ويعتريه التيه وتعتريه الحيرة ...

فماذا يترتب على هذا من تصرفات ؟

يترتب عليها التصرفات التي نراها في أوربة وأمريكة اليوم .

يترتب على هذا مثلاً : أن نجد البلد الذي حقق الضمانات الاجتماعية إلى أقصى حد مثل السويد ، يتميز

بشيء خطير وهو أنه يتصدر رأس القائمة في (إحصائية الانتحار العالمية) . فظاهرة الانتحار في العالم ، يشغل فيها المكان الأول ، البلد الأكثر تقدماً نسبياً من حيث الضمانات الاجتماعية .

وهذا إن عنى شيئاً فإنما يعني أن البطون إذا امتلأت لاتغني النفوس ولا تشبعها .

إذا شبعت البطون قد تبقى الأرواح متعطشة ، تبقى الأرواح متطلعة . وحين لا تجد وجهة تتطلع إليها تفضل الاستقالة من الحياة . هذا إذن ما يحدث ، وقد يحدث في بلاد أخرى أكثر من هذا في صورة ما ؛ ويبدو أن هناك صوراً أخرى للاستقالة من الحياة ، هي في الحقيقة أشنع من الناحية الأخلاقية ، ولا أقول من الناحية الدينية . فهي أشنع لأن كل صور خيبة الأمل تتجلى فيها ، مع شيء من العجز حتى عن القيام بهذه المحاولة لإعدام النفس . وذلك أن هذه المحاولة تتطلب شيئاً من الشجاعة . ولأن الإنسان فقد مروءته إلى درجة الفشل ، حتى في التخلص من الحياة بالطرق غير

المشروعة ، فإنه يفر منها عن طريق الموبقات ، عن طريق التدهور الأخلاقي ، عن طريق الإدمان على المخدرات ، فيصبح المجتمع مهدداً بالخراب ، لأن قاعدته الاجتماعية تنهار ، أي شبابه ينهار .

إن بعض الإحصائيات الأخيرة ، التي وقعت بين يدي عن إدمان المخدرات في محافظة باريس ، والتي نشرتها مصلحة الأمن في هذه المحافظة ، في تقرير رسمي صادر عن مجلة تصدرها تلك المصلحة ، تفيد أن نسبة المدمنين بين الشباب لِلمخدرات ، تضاعف بنسبة عشرين في المئة في السنتين الأخيرتين ، فبإمكانكم إذن أن تتصوروا ماذا سيكون معدل ارتفاع النسبة خلال السنوات العشر المقبلة . ويمكن ، إن جرت المسائل كما تجري الآن ، أن يعم الإدمان الشباب كله في باريس . وأظن أن الأمور تجري على الوتيرة نفسها في سائر أنحاء فرنسا .

يبدو أن الشباب الفرنسي سوف ينهار ، وسوف يحاول الانفلات من حياة فقدت مسوغاتها ، عن طريق

المخـدرات . إن دلَّ هــذا على شيء ، فهـو يــدل على أن المجتمع يفقد الآن قاعدته الاجتماعية المتينة وهي شبـابـه ، يضيعه إما في المتاهات ، أو في الخمارات ، أو في المخـدرات أو في المقابر ، عندما ينتحر .

وهذا ما يدعونا بالطبع إلى أن نحلل هذه الأشياء .

ماذا تعني هذه الأشياء ؟ مـاذا تعني هـذه اللوحـة القاتمـة التي قـدمنـاهـا بخطوط سريعـة ، بعبـارات فجـة ملتقطة يميناً وشمالاً ؟

إذا مضينــا قليـلاً في حــلِّ الأزمــة خصـوصـاً في أمريكـة ، يبـدو لنـا أن المجتمـع الأمريكي يعـاني ظـاهرة تضخم من نـاحيـة وتنـاقص من نـاحيــة أخرى . تضخم الإمكان الحضــاري وتضــاؤل الإرادة الحضــاريــة . أي تناقض بين الإرادة الحضارية والإمكان الحضاري .

إذا أردنـا توضيحـاً أكثر ، نقول : إن الهوة أصبحت تتسع بين الواقـع الطبيعي الإنسـاني الـذي ورثـه وورث مسوغاته التقليدية وبين واقعه الثقافي اليوم .

فالهوة بدأت تتسع ، والإنسان أصبح يتمزق ـ خاصة الشباب ـ بين فكرة لا يستطيع التخلص منها تماماً لأنها مسجلة في طينته البشرية ، تلك الطينة التي كرمها الله ، وبين واقع ثقافي لا يقدم له مسوغات ولا يعطيه بديلاً عن مسوغاته التقليدية المفقودة .

هذه هي الصورة التي نستطيع تقديمها في خطوط عريضة ، عن الحياة في المجتمع المتحضر وعلى محور (واشنطن ـ موسكو) . وإذا تساءلنا الآن هل ظاهرة التدهور والانحلال .. هذه فاقدة المعنى بالنسبة للمؤرخ ، الذي يريد أن يفيد حتى من التجارب الشاذة المؤلمة ؟.

نستطيع أن نقدم افتراضاً احتمالياً فنقول : لعلَّ الله يريد شيئاً من وراء هذا كله . كأنما هذا استدراج ، تسوق الأقدار فيه هذا المجتمع المتحضر إلى طريق ، حيث تنتهي فيه أخطاؤه ، ليفسح مجالاً لتجربة أخرى بعد إخفاق التجارب السابقة ، ونحن نرى فعلاً أن التجارب الأساسية في التاريخ لن تبدأ حتى تخفق قبلها كل التجارب السابقة التي فقدت أسسها التاريخية .

يجب أن ينتهي التاريخ في نقطة ما كي يتجدد التاريخ من نقطة جديدة .

يجب أن يكون هذا مفهوماً وخاصة لدى الشباب . يجب أن يخفق التاريخ ، يجب أن يفلس التاريخ . وأحياناً يجب أن نعلن الإفلاس كي نشعر الناس وخصوصاً الشباب بأن هذا الإفلاس هو طريق البداية . فلعلَّ هذا الذي نراه على ذلك المحور استدراج لشيء ربما تعبر عنه الآية الكريمة : ﴿ **هُوَ الذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بالْهُدى ودينِ الحقِّ ليُظْهِرَهُ على الدِّينِ كُلِّه** ﴾ ، [الصف : ٩/٦١] . ربما هذا هو القطب الذي يتجه إليه مجرى التاريخ في هذا الثلث الأخير من القرن العشرين . وعلينا أن نتأكد بقدر إمكاننا من هذا ، وليس لنا أن نقرر ونبتّ في شيء قبل انقضائه ، فلكم أنتم أيها الشباب بعد ثلاثين سنة أن تروا الحقيقة سافرة كما هي . أما نحن في جيلنا فلا نرى إلا توقعات ، ونحاول أن نرى من خلال هذه التوقعات جانباً من مصير الإنسانية .

يجب علينا أن نقوم بعمليتين : أن نرسم خريطة ،

الخريطة (الأيديولوجية) كما يقولون اليوم أو خريطة الأديان كما نقول نحن ، في العصر الذي تنزلت فيه هذه الآية ، وهذه الآية فيما أظن آية مكية[1] أعني في البداية ، أعني في نقطة الصفر .

لو كان لنا أن نرسم الخريطة فعلاً في وقت تنزلها - تنزيل الآية - لوضعنا على الخريطة نقطة من لون معين يعبر عن رقعة الإسلام في العالم وهي مكة ، فنلونها بلون ما . هذا اللون الإسلامي لا يعدو أن يكون نقطة في الكون ...

بينما تتنزل هذه الآية كأنها تحدٍّ لهذا الواقع ، كأنها تحد لا يتصوره العقل تصوراً لو كنا معه نحن معشر عباد القرن العشرين ، بعقلانيتنا وعلميتنا نعيش في وقت التنزيل لقلنا هذه خرافة . ما هي هذه الخرافة ؟ إن هذه الآية تتحدى ..!! تتحدى الإمبراطوريتين والحضارتين القديمتين الكبيرتين : إمبراطورية وحضارة فارس من ناحية ، وإمبراطورية وحضارة بيزنطة

---

(١) نزلت الآية في الحديبية سنة ٦ هـ (المصحح) .

والبحر الأبيض على العموم من ناحية أخرى ، فهذا التحدي هو من أقسى معجزات القرآن في الحقيقة ، وذلك عندما نتصوره في وقت التنزيل ، لأننا إذا رسمنا الخريطة الأيديولوجية آنذاك فماذا نجد عليها ؟

إننا نجد عليها لون المجوسية أو لون الديانة الفارسية ، ولون البوذية ، ولون البرهمية أو لون الهندوكية كما يقولون ، ولون المسيحية ، ولون اليهودية ... ونقطة مغمورة في الكون هي مكة نقطة الإسلام .

فلو أردنا ونحن في ذؤابة القرن العشرين ، الثلث الأخير منه ، رسم خريطة جديدة للأديان اليوم ، في عام ١٩٧٢ م فماذا نجد ؟

نجد أن البوذية قد شطب عليها قلم السيد (ماوتسي تونغ) فمحاها من الوجود . وأما المجوسية فقد محاها عمر يوم القادسية . وأما البرهمية فقد محتها ظروفها الخاصة بوصفها ديناً لا بوصفها ثقافة ، فهي بوصفها تراثاً ثقافياً ستبقى إلى أجل لاندري مداه

ـ نتجنب التكهنات ـ أما بوصفها ديناً فقد انتهت وانتهى دورها ، لقد فشلت في أبسط مهماتها خاصة بعد استقلال الهند ، فقد سجلت الهند في السطور الأولى من دستورها عام ١٩٤٨ م ، أنها سوف تقضي على حالة المنبوذ ، وكان من سجل هذا إنما سجله تحت إملاء الروح الكبير كما يقولون أي (مهاتما غاندي) ، وقد سجل هذا البند في أحسن ظروف تطبيقه بعد الخلاص من محنة الاستعمار ، وبعد فرج الاستقلال وفرحة الاستقلال .

واليوم إذا راجع الهندوكي أو راجعنا نحن القضية بعد عشرين سنة نراها قد فشلت فشلاً ذريعاً . وهي قضية لا تتصل بمصير عشرة آلاف مثلاً بل تتصل بمصير ثمانين مليوناً من البشر تقريباً ، وهذا ليس بالشيء الهين . لقد فشلت لأنها لم تستطع حل المشكلات الاجتماعية ، وهذا يعني كأنما قد قدمت استقالتها من التاريخ .

أما المسيحية فقد حدثت لها أيضاً في الفترة الأخيرة تطورات غريبة عبر عنها ذلك المجمع المسكوني الأخير ،

وقبله مجمع الفاتيكان الثاني . لقد أصبحت تعاني من مشكلات تعبر عن ظروف خطيرة جداً تواجهها المسيحية اليوم . فالمسوغات المسيحية بدأت فعلاً تفقد تأثيرها في الحياة المسيحية ، فقد بدأ بعض القسيسين ـ على رغم من تأديتهم يمين الدخول في سلك الرهبنة : يمين أنهم يعيشون من أجل الله ، وأنهم لا يتزوجون ويلتزمون بجميع شروط الرهبانية ـ بدؤوا بعد هذا اليمين المقدس ـ على شروطهم ـ يصرحون في الصحافة ؛ وفي مؤتمرات صحفية كبرى تدور أحياناً أمام عدسة المصور ، ويعلنون أنهم ألقوا المسوح وتخلصوا من أعبائه وأنهم تزوجوا..

ونرى المعركة تدور في مستوى أعلى ، على مستوى الكردينالات في الفاتيكان ، فيقدم كردينال هولندي (الكردينال سانس) استقالته من المجمع المسكوني ، مساندةً للقساوسة من الشباب الذين تمردوا على المسوح وشروط لباسه ، ثم احتجاجاً على سياسة الفاتيكان الاجتماعية .

ما معنى هذا بالنسبة إلينا نحن الذين نحلل هذه الظروف ...؟

معناه أن المسيحية بدأت فعلاً تفقد المسوغات التي يجب تقديمها للشباب القسيسين وللمرأة على حدٍّ سواء .

ولقد حدث الذي كان لا بدَّ من أن يحدث على أثر فقدان المسوغات . حدث أن بدأت دور التعليم العالي المسيحي في العالم ، خاصة في أمريكة اللاتينية تغلق أبوابها الواحدة بعد الأخرى ، ثم تبعتها الأديرة . ذلك لأن فتيات المجتمع الإيطالي قد انصرفن لمجالات أخرى من النشاط الأخلاقي ، غير تلك التي تشرف عليها الهيئات الكهنوتية . وهكذا رأينا من سنتين حادثة ربما بلغكم صداها : أن أحد الأديرة ذا التاريخ العريق الممتد إلى ستة أو سبعة قرون ـ كانت أبوابه خلالها مفتوحة دائماً ـ أصبح مهدداً بالإغلاق ، لأنه فقد البنات المتطوعات لسلك الرهبنة ولبس المسوح ، مما جعل القس المشرف على إدارة هذا الدير ، يرى نفسه مضطراً أن يقوم بعملية أخذت أبعاد الفضيحة ، وذلك حينما اكتشفتها صحيفة إنكليزية . لقد ذهب هذا القس لتفادي الوضع في ديره ـ ونحن نعلم كم كان له من عطف

وحنـان على حيـاة هـذا الـدير ـ إلى الهنـد وإلى منطقـة فقيرة (منطقة كارالا) ، فاشترى منها عـدداً من البنـات بالعملة الصعبة ، كي يعلمهن ارتداء لباس المسوح والقيـام ببعض الطقوس البسيطـة ، وذلـك لمـدة شهرين قبل أن يزج بهن في الدير ، كل هذا كي يبقى الدير ...

ولكن صحيفـة إنكليزيـة قـد أفشت هـذا السر للأسف ، ثم تناولته الصحافة العالميـة فـأصبح فضيحـة ، وأصبح الفاتيكان يحـاول التغطيـة بقـدر الإمكان ، لأنها فعلاً فضيحة .

فإذا رجعنا إذن إلى الخريطة المرسومة أمامنا نجد أن اللون المسيحي أيضاً يعـاني مـا يعـاني ، فهو كأنمـا بهت أو شحب .

ونرى على الخريطـة شيئـاً غريبـاً : إن اللـون الإسلامي ولوناً آخر جديداً ـ هو لون ديـانـة جـديـدة ـ يكتسحان العالم . فاللون الإسلامي اليوم يغطي مساحة من الدنيا تعـادل نصفهـا تقريبـاً (مسـاحتـه الإفريقيـة والآسيوية تقدر بنصف الدنيا تقريباً) ، وعدته البشرية

تبلغ (٨٠٠ مليون) ـ حصّلنا هذا الرقم من إحصائية أخيرة تحت إشراف الأمم المتحدة ـ . ولكي نعطي هذا العدد الاعتبار الصحيح يجب أن تكون لدينا فكرة عن نموه في عدد من السنين . إنني حينما قرأت لأول مرة ما يسمى بالجغرافيا البشرية وأنا ابن ١٢ أو ١٣ سنة كان توزيع أتباع الأديان كما يلي : للمسيحية فيما أظن (٦٠٠ مليون) وللبوذية (٥٠٠ مليون) وللبرهمية (٤٠٠ مليون) وللإسلام (٢٥٠ مليوناً) . وفي أوائل الحرب العالمية الأولى كان هذا عدد المسلمين كلهم في العالم ، أي إن عدة العالم الإسلامي البشري كانت (٢٥٠ مليوناً) . فها نحن أولاء في مدى نصف قرن مثلاً نرى أن العدد قد تصاعد إلى ما يقرب الآن من المليار .

إذن فنحن نرى طرفين في القضية وعلى خطين متوازيين : نرى أن سير التاريخ كأنما يستدرج العالم إلى فشل تجاربه وخيبة أمله ، في تجاربه العلمية والتكنولوجية إلخ ... من ناحية ، ومن ناحية أخرى نمو العالم الإسلامي كماً وكيفاً : كماً من حيث ازدياد السكان ،

وكيفاً باكتساب تجارب جديدة حتى لو كانت سلبية .

ونرى في الخط الموازي كأنما الله يهيئ القاعدة التاريخية الاجتماعية لتحقيق الآية الكريمة : ﴿ هُوَ الَّذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بالْهُدى ودينِ الحقِّ لِيُظْهِرَهُ على الدِّينِ كُلِّه ﴾ [الصف : ٦١/٩] .

فنحن نرى أن القضية تسير في اتجاه هذا القطب ، إذ يبدو أن من يسير على الخط الحضاري ، كأنه يستدرج بأخطائه وباكتشافاته العلمية ، لتتهيأ لمن يسير على الخط الموازي ظروف ظهوره على مسرح التاريخ .

سبق أن أشرنا إلى اللون الجديد الذي ظهر على الخريطة سنة ١٩١٧ م وهو لون أحمر لون الشيوعية ، وهي أيضاً دين وأنا أتحدث عنها هنا على هذا الأساس . فأنا لاأتناول الشيوعية هنا بوصفها مذهباً سياسياً أو مذهباً اقتصادياً ، وإنما أتناولها في حديثي هذا على أنها عقيدة ودين تقدم هي الأخرى مسوغاتها ، وهي في الطريق إحدى عمليات التعويض في العالم المتحضر للمسوغات التي فقدها . فإذا أخفقت محاولة الوجودية كما

أخفقت محاولة التعويض السياسي ، لتنظيم وبناء جديد لحياة أوربية متحضرة بعد تصفية الاستعمار ، فيجب أن نضيف إلى هذا أن عمليات التعويض التي نجحت ، إنما نجحت على حساب المسوغات الأساسية التقليدية التاريخية أي على حساب المسيحية . فالشيوعية ظهرت نتيجة لعملية تعويض لمسوغات مفقودة .

يتبين إذن أن خطي السير والأحداث التي تجري عليهما ، كأنما تقود مصير الإنسانية نحو قطب يتحقق فيه معنى الآية التي ذكرناها : ﴿ هُوَ الَّذي أَرْسَلَ رَسُولَه بالْهُدى ودينِ الحقّ لِيُظْهِرَهُ على الدِّين كلِّه ﴾ [الصف : ٦١/٩] .

إن هذا ما يجعلنا نعيد النظر في موقف المسلم في هذا الثلث الأخير ، إذ الآن يبدأ دور المسلم أمام هذه الظاهرة ، حتى لكأنما أراد الله عز وجل تعطيل وتأجيل دور المسلم في هذا القرن حتى تنتهي كل تجارب الآخرين بالفشل ، ويستطيع إصلاح أخطائهم ، أوحتى تصل تجاربه إلى نهاية فشلها فتكون له الخبرة لتدارك أخطائه .

ولكن كيف يتحدد هذا الدور ؟

يتحدد طبعاً طبقاً لهذه الظاهرة التي نرى جانبيها ، جانبها الذي يتحقق على محور (واشنطن ـ موسكو) ، والجانب الآخر الذي يتحقق على محور ما سميناه محور (طنجة ـ جاكرتا) ، والذي نسميه الآن محور الإسلام .

فكيف نتصور دور المسلم ؟

يجب أن يفكر المسلم كيف يسير في اتجاه التاريخ . كيف يستغل الظروف السانحة التي تتهيأ له على المحورين : المحور الذي فقد المسوغات التقليدية والذي ينتظر مسوغات جديدة . والمحور الذي أشار الله عزّ وجلّ إليه في الآية الكريمة : ﴿ هُوَ الَّذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بالْهُدى وَدينِ الحقّ لِيُظْهِرَهُ على الدِّينِ كُلِّه ﴾ [الصف : ٦١/٩] .

كيف نتصور إذن دور المسلم ؟

نتصوره طبقاً لضرورات داخلية وضرورات خارجية : ضرورات إنشاء وتشييد في الداخل ، وضرورات اتصال وإشعاع في الخارج . ولو ألقينا سؤالاً

الآن فلا شك أننا سنتفق على الجواب . فعندما نتساءل كيف يقوم المسلم بدوره في اتجاه تحقيق معنى الآية الكريمة التي أوردناها نجيب آلياً : إن على المسلم أن يبلغ الإسلام ، دون أن نحدد في إجابتنا شروط هذا التبليغ ، وهذا هو المنطق السهل الذي يغرر بنا ، إن الجواب صحيح شكلياً ولكننا بكل أسف نقف عند الجواب ولا نرى مقتضياته الواقعية .

سأعطيكم صورة رمزية نطبقها بعد ذلك : هل ترون إلى أرض عطشى تنتظر الري من الماء ؟ هل نستطيع ريها بماء يجري تحت مستواها ؟ إن الإجابة ستكون بالطبع : لا باستثناء المجنون أو صاحب الشطحات الصوفية إذ يعتقد أن الماء سوف يطلع إليها فيسقيها . لا لن يسقي الماء الأرض بالصعود إليها ، وإنما بالانحدار وذلك بحكم السنن الإلهية عن طريق الجاذبية . سنة الله تقضي أن ينحدر إلى هذه الأرض إذا كان مستواه يخوله ذلك .

إذن إذا أراد المسلم أن يقوم بدور الري بالنسبة للشعوب المتحضرة والمجتمع المتحضر ، وأراد - بعبارة

أوضح ـ أن يقدم المسوغات الجديدة التي تنتظرها تلك الأرواح ، التي تتألم لفراغها وحيرتها وتيهها ، إذا أراد المسلم ذلك ، فليرفع مستواه رفعاً يستطيع معه فعلاً القيام بهذا الدور . إذ بمقدار ما يرتفع إلى مستوى الحضارة بمقدار ما يصبح قادراً على تعميم ذلك الفضل ، الذي أعطاه الله له (أعني دينه) . إذ عندها فقط يصبح قادراً أيضاً على بلوغ قمم الحقيقة الإسلامية ، واكتشاف قيم الفضيلة الإسلامية ، ومن ثم ينزل إلى هضاب الحضارة المتعطشة ، فيرويها بالحقيقة الإسلامية وبالهدى ، وبذلك يضيف إليها بعداً جديداً . لأن الحضارة العلمانية ، حضارة الصاروخ ، حضارة الإلكترون اكتسبت هذه الأشياء ، وضيعت بعداً آخر تشعر بفقدانه وهو بُعد السماء .

إن أوربة حققت المعجزات في عالم الاكتشافات وعالم العلوم .. ولكنها فقدت في أعماق نفسها البعد الذي كان يروح عليها ويرفه عنها ويسندها في وقت المحن ، لأنه يربطها بوجود الله .

إذا أراد المسلم أن يسدّ هذا الفراغ في النفوس المتعطشة ، النفوس المنتظرة للمسوغات الجديدة ... فيجب أولاً أن يرفع مستواه إلى مستوى الحضارة أو أعلى منها كي يرفع الحضارة بذلك إلى قداسة الوجود ، إلى ربانية الوجود ، ولا قداسة لهذا الوجود إلا بوجود الله . والمسلم إذا أتى بهذا لا بلسانه ولا بشطحاته الصوفية ، وإنما بوصفه إنساناً معاصراً للناس شاهداً عليهم بالتقى والورع ، بنزاهة الشاهد الصادق ، الصادق الخبير ، الواعي لقيمة شهادته ... إذا أتى المسلم هكذا في صورة الإنسان المتحضر ، الذي اكتملت حضارته بالبعد الذي يضيفه الإسلام إلى الحضارة (وهو بعد السماء) ، عندئذ ترتفع الحضارة كلها إلى مستوى القداسة ، أي إن الوجود الذي فقد القداسة في القرنين الأخيرين خصوصاً في هذا القرن ، تعود إليه قداسته لأن القداسة من الله ومن الله وحده ولا شيء يعطي القداسة لهذا الوجود غير الله .

والسلام عليكم .

رسالة المسلم

في الثلث الأخير من القرن العشرين

محاضرة الأستاذ مالك بن نبي

في جامع المرابط في دمشق

١٩ / ٤ / ١٣٩٢ هـ = ٢٢ / ٥ / ١٩٧٢ م

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

والصلاة والسلام على خير المرسلين .

إخواني ! أيها الأبناء الكرام !!

إن الظرف الذي يجمعني بكم في هذا البيت من بيوت الله ، وأنا على وشك العودة إلى الجزائر ، يجعلني أفكر بدلاً من أن أعيد محاضرة سابقة هي الآن بين أيديكم ، أن أضيف لها بإيجاز حلقة تمثل امتداداً في سلسلة أفكارها . ففي سلسلة الأفكار التي تناولتها المحاضرة السابقة ، انتهيت آخر المطاف إلى نتيجة كبرى ، تضع إشارة استفهام على مصير الإنسانية عموماً ، في هذا الثلث الأخير من القرن العشرين ، كما تضع إشارة استفهام على دور المسلم في هذا الثلث الأخير . وقد قلت فعلاً في نهاية تلك المحاضرة :

« إن أوربة حققت المعجزات في عالم الاكتشافات

وعالم العلوم ... ولكنها فقدت في أعماق نفسها البعد الذي كان يروح عليها ويرفه عنها ويسندها في وقت المحن لأنه يربطها بوجود الله . إذا أراد المسلم أن يسدَّ هذا الفراغ في النفوس المتعطشة ، النفوس المنتظرة للمسوغات الجديدة ... فيجب أولاً أن يرفع مستواه إلى مستوى الحضارة أو أعلى منها كي يرفع الحضارة بذلك إلى قداسة الوجود »[1] .

فحضارة القرن العشرين أفقدت أو أتلفت قداسة الوجود ، في النفوس وفي الثقافة وفي الضمائر . ولقد أتلفت القداسة لأنها عدتها شيئاً تافهاً لا حاجة لنا به .

ولقد انجرت إلى إتلافها بسبب منشأ ثقافتها التي يطلق عليها اليوم (العلمية) ، والتي أخضعت كل شيء وكل فكرة إلى مقاييس الكم منذ عهد ديكارت . لقد حاولت أوربة ونجحت ، ونجاحها قد يفسر لنا اليوم على المدى البعيد ، فشلها في الاستمرار . لقد نجحت في

---

(١) صفحة ٣٩ من دور المسلم .

إخضاع كل شيء لمقاييس الكم ، ولكن نجاحها يفسر بالتالي الأزمة التي تمرُّ بها اليوم حضارتها ، التي فقدت كل مسوغات وجودها لأنها أفقدت الوجود قداسته . كان الوجود مقدساً في كل تفاصيله ، في حياة الحشرات كان مقدساً ، في حياة الإنسان كان أكثر قداسة ، حتى الأشياء التي تلقى في الشوارع ، كانت هناك تفاصيل توحي بقداستها ، كان المار في الشارع إذا التقى بصره بفتات الخبز ، ينحني ويلتقط هذا الفتات ثم يقبله ويضعه في مكان طاهر ، لأنه كان يشعر بقداسة هذه الأشياء . أما الأوربي فلا يهمه هذا ولا يلتفت إليه لأن هذا الفتات من الخبز ، لا قيمة له في نظره الكمي ، إذ لا ثمن له ، لذا يلقى مع الأشياء الأخرى في سلة المهملات . وتركت أوربة في سلة مهملاتها كل قداسة الأشياء ، وكل القيم المقدسة ، وفي آخر المطاف دار عليها صولجان علمها وطغيانها العقلي ، كثعبان التوى على صدرها يضيق عليها الأنفاس ، أوربة اليوم لا تتنفس التنفس الطليق ، بل تتنفس تحت ضغط عالم الأشياء

المتراكمة . إذ بقدر ماتراكمت الأشياء ، وبقدر ماتراكمت الإمكانيات الحضارية اضمحلت القاعدة الأخلاقية الروحية المعنوية التي تتحمل في كل مجتمع عبء الأثقال الاجتماعية والأثقال المادية ، إذ لابدَّ من قاعدة روحية متينة حتى تتحمل هذه الأعباء ، هذه الأعباء التي ترزح تحتها أوربة أو الحضارة الغربية اليوم وهي في خضم الأشياء التي تنتجها التكنولوجية .

من هنا نتصور إذن دور المسلم باعتباره رسالة . دور المسلم لأنه يعاني أيضاً أزمته الخاصة به وهو يعلم ذلك ، إذ لا يمكنه ألا يعلم ، وأعداؤه أصبحوا أقرب من قبل من معاقله المقدسة . إنني لاأريد أن أشير هنا إلى أشياء سمعتها أثناء الحجة الأخيرة ، أشياء تدل علي أن الشعور بالخطر موجود في ضمير كل مسلم شعور بخطر كبير داهم .

إذن نحن نعيش أزمتنا الخاصة بنا ونعيشها بكل أبعادها ، بعدها الاقتصادي مثلاً ، يكفينا أن نذكر ، على سبيل المثال ، أن أحطَّ المستويات الاقتصادية في

العالم ، في صورة ما يسمى متوسط دخل الفرد السنوي ، هو في البلاد الإسلامية . إن هذا معناه أن أحط الحظوظ ، في هذه الدنيا أصبح للأمة التي خصها الله بالهداية الإسلامية ، وخصها الله برسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، في هذه الدنيا . هذه الأمة أصبحت تعاني الأزمات المتنوعة التي قد نجمعها في كلمة واحدة نسميها الأزمة الحضارية ، وهي فعلاً أزمة حضارية لا غير . إذن نحن نعاني أزمتنا ومن ناحية أخرى تعاني الإنسانية المتحضرة أزمتها . والأزمة التي تعانيها الإنسانية المتحضرة أخطر وأعمق بكثير من أزمتنا نحن ، لأن أزمتنا لا تمس جوهر كياننا الإنساني فيبقى مع أزمتنا على الرغم من كل شيء ، شيء من الكرامة أو شيء من التكريم الذي وضعه الله عز وجل في الإنسان على العموم ، أما الأزمة التي تنتاب الحضارة أو الإنسان المتحضر اليوم ، فهي أحياناً تفقده حتى إنسانيته ، فيصبح إما وحشاً مفترساً ضارياً ينقض على كل ما يستطيع تحطيمه ، أو يصبح حيواناً تائهاً في المتاهات التي تفتح له بالمخدرات ،

هذه هي الأزمة الخطيرة التي تعانيها الإنسانية المتحضرة أو يعانيها الإنسان المتحضر .

إذن الإنسانية بشطريها ، بشطرها المتخلف ، وبشطرها المتحضر ، تعاني أزمة خطيرة هي أخطر أزمة في وجودها على سطح هذه الأرض . وفي حين يسير الزمان كعادته إلى مصب ، فإننا نرى خطورة هذا السير من خلال التوقعات التي تصورها لنا ملابسات هذه الفترة من الزمن ، التي نعيشها الآن بكل تقلباتها السياسية العسكرية الاقتصادية الثقافية . إننا نتصور أن نهاية هذا الثلث الأخير من القرن العشرين لن تكون كالفترات الأخرى ، لأن التاريخ سينفرد إلى حدٍّ كبير بأشياء أخطر مما يتصور العقل ، كأنما التاريخ كله تجمع منذ بدايته ، أعني منذ بداية دخول الإنسان في العهد الذي يسمى العهد التاريخي ، واقترب من مصبه ، كالنهر الذي تجمعت كل روافده فيه عندما أصبح قريباً من البحر ، ولهذا أصبح الثلث الأخير هذا ممتلئاً بكل التوقعات . وسينصب قريباً في (سنة ألفين) التي تضع

أمام الإنسانية جمعاء أخطر نقط الاستفهام على مصير الإنسانية منذ بدايتها . لأننا لاندري في الحقيقة كيف تنتهي هذه الحقبة من الزمن .

ونحن باعتبارنا مسلمين أو باعتبارنا بشراً ، نشاطر البشرية مصيرها ، إن الإنسانية تعيش فعلاً ما يسمى حالة طوارئ ، أمام حالة الطوارئ هذه يطرح سؤال : ماهي رسالة المسلم ؟ إن رسالته قد نلخصها في كلمة لاتعطينا حلاً ولكن تشفي إلى حدٍّ ما غليلنا لأنها كلمة مقبولة . وهي مقبولة من ناحية لأن الظروف تفرضها علينا ، وتتعارض من ناحية أخرى ـ ربما في أعماق أذهاننا ـ مع مقدمات تتنافى مع مقتضيات الرسالة .

فما هي رسالة المسلم أمام حالة تتطلب الإنقاذ ؟

الجواب : إنقاذ نفسه وإنقاذ الآخرين .

هذه هي رسالة المسلم . أليس في أذهاننا مقدمات سلبية تتناقض مع هذا الزعم ، كأننا انجذبنا إلى شيء من الغرور ؟ كيف يستطيع الإنسان المسلم الذي لا يتمتع

بـالقـدر الكافي من الإمكانيـات الحضـار يـة حتى لتحقيق لقمـة عيشـه ؟ كيف يستطيع إنقـاذ الآخرين ؟ وكيف يتطلع لهذه الرسالة ؟.

إذا تساءلنا هذا السؤال يجب علينا أيضاً أن نتساءل بهذا المنطق نفسه : لماذا استطـاع ذلـك أولئـك الأعراب الفقراء في عهـد محمـد ﷺ ؟ لمـاذا قـام أولئـك الأعراب الفقراء الأميون بإنقاذ الإنسـانيـة وشعروا أنهم جـاؤوا من أجـل إنقـاذهـا ؟ فقـد كانـوا يعلنـون هـذا في أقـوالهم ومخـاطبـاتهم للآخرين سواء من أهـل الفرس أو من أهـل رومـا . كانوا يقـولـون لهم : لقـد أتينـا لننقـذكم . إنهم لم يشعروا بمركب النقص . لماذا لم يشعروا بمركب النقص ؟ لأن الإمكانيات الحضارية المتكدسة أمـامهم في فـارس أو في بيزنطة أو في رومـا لم تفرض عليهم النقص ، وبعبـارة أخرى لم تبهرهم ، كانـوا يشعرون أمـام الإمكانيـات الحضـاريـة المتكـدسـة ، بإرادة حضـاريـة تفـوق كثيراً ماتبقى منهـا لـدى المجتمعـات المتحضرة في ذلـك العصر . كذلك الحال اليوم لو أننا عقدنا موازنـة . فليس إذن من

الصعب أن يقوم هـذا المسلم الفقير ، الأعـزل ، هـذا المسلم الذي يضحي بمصالحه الكبرى حتى في هيئة الأمم ، أن يقوم على الرغم من ذلك بفضل إسلامه فقط ، بمهمة الإنقاذ ، ولهذه المهمة شروط ربما نشرحها إذا اتسع المجال لذلك . إنه بفضل إسلامه لا غير يستطيع اليوم إنقاذ الإنسانية المتورطة في الضياع على الرغم من علمها وكبريائها وتكنولوجيتها . غير أن كل رسالة تقوم على إعجاز ؛ رسالة موسى قامت على إعجاز ، كانت عصا موسى تلتقف ما يأفكون ، حتى خرَّ السحرة ساجدين ، واعترفوا بإله هارون وموسى . إعجاز عيسى كان إنقاذ المرضى من أمراضهم وإحياء الموتى أحياناً .

إعجاز النبي صلوات الله عليه وأزكى التسليم تعرفونه جميعاً ، فقد أيدته السماء بالقرآن وأيدته بخلقه العظيم وأيدته أحياناً بالملائكة . وهلمَّ جراً .

فاليوم أيضاً إذا أراد المسلم أن يقوم برسالة ، فهذا يتطلب نوعاً من الإعجاز تفرضه الظروف الخاصة التي تمرُّ بها الإنسانية اليوم ، على اعتبار أن الإعجاز هو مجموعة

شروط منطقية وغير منطقية أعني خارجة عن المنطق ، مجموعة شروط تحقق أمرين : الاقتناع والإقناع .

الاقتناع أولاً لأن فاقد الشيء لا يعطيه ، فلا يمكن للمسلم إن لم يقتنع بأن له رسالة أن يبلغ الآخرين هذه الرسالة ، أو فحوى هذه الرسالة أو مفعول هذه الرسالة . إذن يجب أن يقتنع هو أولاً . وأنا أعني قناعته برسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين ولا أتكلم عن اقتناعه بدينه . فكل مسلم مقتنع بدينه من يوم أن نزلت الآية الأولى في غار حراء . ومن يحاول أن يأتي للمسلمين بوسائل لاقتناعهم بدينهم فإنما يضيع وقته وربما يضيع وقت المسلمين أنفسهم . فالمهم في الأمر اليوم أن نلاحظ أن الشكوك التي تسربت إلى عقول الآخرين عن المجتمع الإسلامي إنما تتناول رسالة المسلم لا عقيدته . فهل الإنسان الذي يستمع إلى المسلم وهو يتحدث عن رسالته ، إنسان تفحص أو راجع أمر القرآن من حيث هو فكرة صحيحة ؟ إن هذا هو من شأن بعض الاختصاصيين : بعض الأفراد من النخبة مثل (لامارتين) الذي خصص

أكبر فصل كتبه إنسان لحياة النبي ﷺ أو (برناردشو) أو (توماس كارليل) . أما الجموع الغفيرة من الناس فلا تصبر لتدليلنا المنطقي أن الله واحد لا شريك له ، وأن النبي رسوله ، وأن هذا الدين صحيح . لقد أصبح هذا كله مسلمات . أما بالنسبة للآخرين ، فإن كان من النخبة فيمكن أن يدركه من خلال كلامنا ، وهو في الحقيقة لا ينتظر كلامنا ، بل ينصرف بجهده الخاص إلى هذا النبع من النور ، ويشعر بأن الإسلام فعلاً حقيقة منزلة من السماء .

أما الجموع الغفيرة ، أما مئات الملايين من البشر ، الذين تخصهم رسالة المسلم في هذا الثلث الأخير من القرن العشرين ، فهي تقول دعونا نلمس ، وقولها آتٍ من كونها نشأت على ما يسمى المنطق العملي أو كما يقول المسيحي منطق القديس (توما) . فـ (توما) هذا حينما رجع المسيح بعد أربعين يوماً إلى الحواريين قال لهم إنني عدت من السماء ... إلخ . ورفعتني الملائكة ... إلخ فسأله (توما) وأين آثار الصليب على يديك وعلى

قدميك ؟ أرني كي ألمس هذه الآثار بيدي لا بعقلي . هذا قولهم بالطبع وليس قولنا ، وإنما نذكره بوصفه عينة من تفكيرهم ومن أوضاعهم النفسية أمام الأفكار . فهل هم يتصلون بالأفكار عن طريق المنطق الذي نعتبره نحن السند الأول لإبطال أو تأييد فكرة معينة ؟ كلا إنهم لا يطرقون الموضوع من هذا الباب وإنما من باب (سان توما) .

فما هو واضح في تصوري أنا المسلم ، ليس واضحاً بالنسبة للآخرين الذين ينبغي علي أن أتقدم إليهم ، آخذاً بالاعتبار تصورهم هم لا تصوري أنا عن حقيقة المسلم . لأن حقيقة المسلم محجوبة عن نظر الآخرين . إن حقيقة المسلم ، كرامة المسلم ، فضيلة المسلم ، أخلاق المسلم ، شرف المسلم ، عزة المسلم ؛ كل هذه الأشياء تخفيها عن نظر الآخرين المظاهر الاجتماعية . وهي تشهد بكل أسف في نظر الآخرين على المسلم وضده . فالمسلم فقير ، والمسلم جاهل ، المسلم كذا ... الإحصائيات الموجودة في العالم كذا ... إلخ ...

فنحن حينما تكلمنا عن الإعجاز الذي يتضمن شروط الاقتناع وشروط الإقناع ، تكلمنا عن شيء جوهري جداً ، أعني أن المسلم لا يستطيع أن يقوم برسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين ، إلا إذا حقق من خلال منطق خاص لرسالته كل شروط الاقتناع وكل شروط الإقناع .

ومن هنا نرى ما يترتب على المسلم من القيام بواجبات ملحة ، حتى يفي بشرط إعجازه في هذا الثلث الأخير نحو نفسه ونحو الآخرين ، إنه يحتاج أحياناً إلى هذه الوسائل حتى بالنسبة إلى إخوانه المسلمين المعرضين ، لأنهم يخضعون هم أيضاً لمنطق (سان توما) الذي يريد أن يلمس الأشياء بيده حتى يعترف بوجودها . أليس في صفوف شبابنا عدد يمنطق قضاياه بطريقة (سان توما) ، يعني بلمس اليد لا بالنظرة العقلية ، بحيث يجب فعلاً أن تتوافر لرسالة المسلم كل شروط الاقتناع وكل شروط الإقناع ؟ ولن يتوافر هذا إلا بتغيير في داخل المسلم ، في أغوار نفسه وحول المسلم في

محيطه الخاص أو في محيطه العالمي ، لأننا حين تكلمنا في بداية الحديث ، عن الأزمة الإنسانية المواجهة لأزمتنا نحن المسلمين ، رأينا أزمة إنسانية من أخطر ما واجهته الإنسانية منذ بداية تاريخها ، وكنتيجة لهذه الأزمة بصورتيها ، الصورة الخاصة بالمسلم والصورة الخاصة بالإنسان المتحضر ، أصبح العالم كأنه ازدواجية ، ازدواجية بين عنصرين متوازيين لا يتصلان إلا عن طريق شبكة علاقات متناقضة . هناك في العالم اليوم إذا تصورناه كلاً ، صلات من الطرف المتقدم ومن الطرف المتخلف الذي يسمى العالم الثالث ، إذا تفحصنا كيف تسير العلاقات بين الطرفين نراها تسير وفق ثلاثة أصناف : ففي المجال الاقتصادي ، أصبح كل شيء في منطق القرن العشرين يفسر بالاقتصاد وأصبح كل شيء يخضع للاقتصاد ، نرى أن طرفي العالم يتعاملان على أساس علاقة اقتصادية متناقضة ، في طرفها الأول المجتمع الذي ينتج المواد الخام كالنفط وغير ذلك من المواد الأولية ، وفي طرفها الثاني من يحول هذه المواد الأولية

إلى منتجات حضارية ، وطبعاً على حساب العالم الثالث أي على حساب اقتصاده وعلى حساب نموه ، كما هو ظاهر لنا مثلاً في قضية النفط ، خصوصاً قبل خمس أو ست سنوات ، حين كانت مادة النفط تدر على أصحاب التروستات وعلى أصحاب الاحتكارات عشرات المرات ، أكثر مما تدر على أصحاب البلاد المنتجة . هكذا كان الوضع في المجالات الأخرى حيث كانت الصلات الاقتصادية تسير على هذه الوتيرة .

وفي المجال السياسي كانت العلاقة أيضاً متناقضة في طرفيها . كان الحوار بين متكلمين : في الطرف الأول الاستعمار ، وفي طرف آخر القابلية للاستعمار . هذا الوضع الذي كان ، وأخشى أن أقول ولا يزال قائماً بين الاستعمار وبين القابلية للاستعمار ، لأننا لم نغير شروط القابلية للاستعمار في أنفسنا . غيَّرنا بعض السطحيات ولم نغير القابلية للاستعمار ، غير أن ضغط بعض الظروف وقوة الأشياء ، جعلت بعض المواقف الاستعمارية تتغير إلى حدٍّ ما ، ولكن لم تتغير كلها ولن تتغير ، مادامت

القابلية للاستعمار هي التي تحاورها في المجال السياسي .

وفي المجال النفسي أو الثقافي هناك محوران : محور ثقافي هو مانسميه محور (واشنطن موسكو) ، وهو محور واحد لا يختلف فيه شرقه عن غربه ولا غربه عن شرقه في هذه الناحية .

هذا المحور يطرق أو يطرح كل مشكلاته بمنطق القوة . بينما يجب على المحور الآخر أعني محور (طنجة ـ جاكرتا) الذي نعيش عليه نحن ، نحن المجتمعات المتخلفة وخصوصاً نحن المسلمين يجب علينا أن نطرح المشكلات بمنطق البقاء ، لأننا بحاجة إلى رفع مستوى بقائنا ، إلى مستوى الحضارة ، وهذا يتنافى مع طرح القضايا بمنطق القوة ، ولا تستطيع ولا تسمح لنا ظروفنا بغير ذلك ، ولا يهمنا ولا يهم الإنسانية التي تعد نفسها متقدمة أن ترجع إلى رشدها . لا يهم أن تطرح أمريكة مثلاً اليوم كل مشكلاتها بمنطق القوة ، بينما مجتمعها أيضاً يعاني أعراض التخلف ، خاصة المدن الصناعية الكبيرة مثل نيويورك وديترويت وشيكاغو .. إلخ . هذه المدن

أصبحت فيها عينات تدل على أن التخلف بدأ يتفشى في المجتمع الأمريكي ، ومع ذلك فأمريكة تخصص كل إمكانياتها لطرح مشكلاتها بمنطق القوة .

أما نحن فمضطرون أن نطرح مشكلاتنا بمنطق البقاء ، حتى نستطيع أن نتقدم بعض الخطوات ، حتى نستطيع أن نرفع مستوانا إلى مستوى الحضارة ، وهنا يفرض علينا طبعاً هذه العلاقات الثلاثية المتناقضة ؛ العلاقة الثقافية ، العلاقة النفسية ، العلاقة السياسية . إذ يجب علينا أن نصفي هذه الخريطة للعلاقات العالمية حتى يتسنى لهذه الإنسانية أن ترفع مستواها إلى مستوى القداسة ، أن ترفع هذه الإنسانية مستواها الواقعي ومستواها الثقافي إلى مستوى القداسة ، وإلى المستوى الذي تستوعب معه مسوغاتها الجديدة في المرحلة الخطيرة التي تمرُّ بها الإنسانية اليوم ، في هذا الثلث الأخير من القرن العشرين ، إذن يجب على المسلم الذي يضطلع برسالته أن يفكر في إعجازه ، وإعجازه لا يتأتى إلا بتحقيق شرط جوهري ، وهو تغيير ما بنفسه وتغيير ما في

محيطه مصداقاً للآية الكريمة :

﴿ إنَّ اللهَ لايُغَيِّرُ مـــابقـومٍ حتَّى يُغيِّروا مابأنفُسِهم ﴾ [الرعد : ١٢/١٣] .

ولا يمكنه أن يغير شيئاً في الخارج إن لم يغير شيئاً في نفسه . وحينما نقول هذه الكلمة نقولها باعتبارها علماً ، ولا نقولها فقط تبركاً بآية ، نقولها (علماً) ونعلم مقدارها من الصحة العلمية ، لا يستطيع مسلم أو غير مسلم أن يغير ما حوله إن لم يغير أولاً ما بنفسه ، فهذه حقيقة علمية يجب أن نتصورها قانوناً إنسانياً وضعه الله عز وجل في القرآن ، سنة من سنن الله التي تسير عليها حياة البشر .

إذن لكي يتحقق التغيير في محيطنا يجب أن يتحقق أولاً في أنفسنا . وبذلك تتوفر شروط رسالة المسلم في الثلث الأخير من القرن العشرين ، وإلا فإن المسلم لن يستطيع إنقاذ نفسه ولا إنقاذ الآخرين .

ثم إذا كان منهج الرسالة يقتضي التغيير ، والتغيير

يقتضي تغيير ما في النفوس أولاً ، إذا كان منهج الرسالة يقتضي هذا ، فإننا نستطيع أن نتكلم عن وسائل الرسالة أو الطرق العملية لتطبيق هذه الرسالة كي تفي بمهمتها ، ألا وهي الإنقاذ أو مواجهة حالة إنقاذ أو حالة طوارئ تخص المسلم وتخص الإنسانية عامة . عندها يجب على كل مسلم أن يحقق بمفرده شروطاً ثلاثة :

١ ـ أن يعرف نفسه .

٢ ـ أن يعرف الآخرين ، وألا يتعالى عليهم ، وألا يتجاهلهم ، وهنا يجب أن تحل عقدة نعرفها ، وهي أن المسلم يزهد كثيراً في عالم النفوس مما يتصل بالآخرين ، لا يجوز للمسلم أن يجهل ما في نفوس الآخرين ، ولا يجوز أن يتعالى على الآخرين ولا أن يتسامى عليهم بدعوى أنه أعد للجنة وأعد للتكريم ، يجب عليه أن يعلم ما في نفوس الآخرين ويجب عليه أن يعلم ذلك لأمرين لا لأمر واحد ، إما لكي يتقي شرهم عن معرفة وإدراك لكل معطيات نفوسهم ، وإما لتبليغهم إشراق الإسلام وإشراق الهداية الإسلامية . فهو إن لم يعرف النفوس

فكيف يقدر أن يتصرف معها بحكمة ؟ إن لم يعرف نفوس الآخرين وظلت صناديق مغلقة عليه فكيف يبلغها الهداية الإسلامية ؟ إنه لن يستطيع . يجب إذن على المسلم بعد أن يعرف نفسه أن يعرف نفوس الآخرين .

٣ ـ ويجب عليه في الشرط الثالث أن يعرِّف الآخرين بنفسه ، لكن بالصورة المحببة ، بالصورة التي أجريت عليها كل عمليات التغيير بعد التنقية والتصفية من كل رواسب القابلية للاستعمار والتخلف وأصناف التقهقر ، كل أصناف التخلف وأصناف التأخر . ويجب عليه أولاً أن يقوم بهذه التصفية حتى يقدم للآخرين صورة مقبولة محببة بوصفها عينة من العينات البشرية التي يصنعها الإسلام ، أما إذا تقدم المسلم إلى الآخرين بوصفه عورة يجب أن يستحى منها ، فالعورة تستر ولا تكشف ، والعورة لا يمكنها أن تبلغ إشعاعاً . الجهل عورة الفقر الذي يسببه كسلنا ، وكسلنا عورة ، الفوضى عورة وهذه العورات كلها لا تستطيع ولا تتيح لشخصية المسلم أن تبلغ إشراق الإسلام .

إذن هنـاك شروط ثـلاثـة يجب أن تتحقـق ، أن يعرف المسلم نفسه بالتدقيق وألا يغالـط نفسـه في معرفـة نفسـه ، لأنـه طـالمـا عمي المسلم بسبب هـذه المغـالطـة ؛ يا ليته لم يلعن طيلة القرن الماضي الاستعمار بل القابليـة للاستعمار ، ولو فعـل ذلـك لكان اليـوم ذا صـورة محببـة ومرضية لنفسه وللآخرين .

إذن يجب على المسلم أن يعرف نفســـه من دون مغـالطـة ، وأن يعرف نفوس الآخرين من دون كبريـاء وتعـال ، وبكل أخوة وصـدق وإخلاص أن يحبهم لوجـه الله حتى تصل إليهم عن طريق وعلى جسر هـذه المحبـة ، حرارة الإسـلام ، حرارة الحب الإسـلامي وكل مـا ينـاط بمفهوم التغيير ، يجب أن نتوخى فيـه أمراً ألا وهو أن كل فكرة لها جانبان :

جانب الصحة ، وجانب الصلاحية .

قد تكون فكرة ما صالحـة وليست صحيحـة ، وقـد تكون فكرة صحيحـة ثم فقـدت في الطريق صـلاحيتهـا لأيـة أسبـاب . ألسنـا نشعر نحن مثـلاً بـأن ديننـا وهـو

أوضح من حيث الصحة من شمس النهار ، أنه إلى حدٍّ ما وبسببنا نحن ، وبسبب تقاعسنا وتكاسلنا ونومنا في النهار فقد بعض صلاحيته . كأن هذه الفكرة المقدسة التي أنزلها الله على محمد عليه الصلاة والسلام ، هذه الفكرة ـ التي لا يختلف في صحتها عقل سليم مع عقل سليم ـ تبدو اليوم وكأنها فقدت صلاحيتها .

أين كرامة المسلم ؟ أين عزة المسلم ؟ أين مجد المسلم ؟ أين علم المسلم ؟ أين نزاهة المسلم ؟ أين بطولة المسلم ؟ أين استشهاد المسلم ؟ أين شهادة المسلم ولو على نفسه ؟

المسلم فرّط في كل هذا . المسلم فرط وضيع وأتلف كل هذا .

والغرب أو الحضارة الغربية أتلفت مسوغات وجودها ، وهي تعاني هذه الأزمة التي أشرت إليها .

والمسلم يضيع القيم الإسلامية التي كانت تشرق على وجهه ، وتجعله في نظر الآخرين أجمل صورة إنسانية في

التاريخ ، فقد كان أحد المؤرخين في أوائل القرن التاسع عشر ، هو المستشرق (فرينو) الذي ترجم جغرافية أبي الفداء ، يذكر في مقدمته وهو يعلق في مقطع يخص رحلة أبي الفداء إلى نواحي (الفولغا) ، حيث كانت تعيش قبائل صقالبة متوحشة كما يصفها أبو الفداء ، وكان أبو الفداء مرتدياً لباسه العربي وعمته العربية . ففرينو هذا وكأنه لاحظ شيئاً غريباً ، يقول : كان العربي يريد أن يظهر في كل مكان بزيه القومي ، نعم لأن صورته في نظر الآخرين كانت هي الصورة المثلى لبني آدم بفضل الإسلام .

أقول هذه الكلمات ، وصية لإخواني ولأبنائنا الكرام من الطلبة ، وأدعو الله أن تتحقق رسالة المسلم في الثلث الأخير من القرن العشرين بفضل هؤلاء الشباب ، وإخوانه في مصر ، وإخوانه في ليبيا ، وإخوانه في الجزائر ، وإخوانه في كل البلاد الإسلامية ... أن تتحقق هذه الرسالة لإنقاذ المسلم من كسله ولإنقاذ الإنسان المتحضر من استهتاره والسلام عليكم .